والمساواة . ومع ذلك فجمهور الباحثين يتصور أن من اليسير عليه أن يقرأ نمطين اثنين من الإنتاج يختلفان فى زعمه اختلافا عميقا ، ففى النمط الأول وهو نمط المديح يتصور الباحثون الشعراء وقد خلصوا للرضا والإشراق والتفاؤل . وفى النمط الثانى يتصورون الشعراء وقد خلصوا للسخط والإنكار والتشاؤم . وبعبارة أخرى قل أن يحاول الباحثون تغيير النظرة السائدة إلى المديح ، وقل أن يتصوروا أن هذا الرضا والإشراق يخفى فى داخله بعض ملامح التوتر والظلام .

هل كان الدكتور طه يتشكك فى الملامح الظاهرية للمديح . يقول إن طبيعة المجتمع ليست فى قرارتها صافية ناصعة ، فقد سخط الكثيرون ، وساعد على ذلك البحث فى مسألة موقف الإنسان من القدر . ومن الواضح أن البحث فى هذه المسألة إنما ذاع وتعمق العقول لأن حياة الناس لم تكن ترضيهم أو ترضى بعضهم على الأقل . والإسلام العظيم كان قد ألقى على العقل الإنسانى مسألتى العدل والحرية ، وعرف المسلمون منذ القرن الأول للهجرة مشكلتين خطيرتين ، إحداهما مشكلة العدل ، والثانية : مشكلة الصلة بين الإنسان والقضاء والقدر .

هل نستطيع أن نستنتج من هذا أننا حين نقبل على شعر المديح نتناسى هذا كله . ونتصور الشعراء بطريقة وهمية . حياة الإنسان ينفعل بعضها ببعض . وقد ينقد بعضها بعضا . ومن حقنا أن نعرف حين نقرأ المديح آثار هذا الانفعال أو محاولة التخلص من التوتر ، وإذا كان ضوء الشمس يحجبه السحاب ، وإذا كانت ظلمة الليل يجلوها ضوء القمر فنحن لانستطيع أن نهمل فى الحالين جميعا اختلاط الأشياء ووجود قدر من الظلمة . ويضرب الدكتور طه لذلك الأمثال من شعر الهجاء الذى ثار بين الشعراء التقليديين فى العراق ، فالمؤرخون يرجعون هذا الهجاء إلى خصومات غير ذات خطر بين حيين من أحياء العرب أو أحياء تميم . وبعبارة أخرى لانفرق بين الأسباب السطحية والأسباب العميقة من ناحية ، ولانفرق بين ظاهر الشعر وباطنه من ناحية ثانية . يقول طه حسين : إن الأسباب العميقة هاهنا هى ذلك الاضطراب الخطير الذى صحب الانتقال من حياة جاهلية ساذجة إلى حياة إسلامية مركبة . أضف إلى ذلك المشكلات التى واجهها العرب حين أديل لهم من الفرس والروم ، وفتحت لهم أقطار الدنيا ، وأتيح لهم ثراء كبير . وقد نتج عن هذا كله قدر لابأس به من الحفيظة والحسد والتنافس .

ثم ينتقل الدكتور طه إلى الشعر نفسه ، فيلاحظ أولا أن هذه الأسباب لابد أن تؤثر